

الاجتماع البشري أو العمران

(تابع لما قبله)

من ينظر في العمران ينبغي ان لا يذهل عما الاقليم من الاثر فيو اذ لا يستوي العمران في كل الاصقاع لا اختلاف طبائع اقاليمها ولا في كل الاجيال لا اختلافهم في الخلق والخلق وسبب ذلك لان الانسان متأثر لعامة الاسباب الطبيعية من حرّ وبرد وهواء وخشب وجذب ونجد وغور وجبل وسهل وبادية ومصر واختلاف فصول وغير ذلك ما بين اعتدال مزاج واختلاف تكوين وثدة واسترخاء وحزم وثبات وطيش وخفة وخشونة ولين ونشاط وقوان وغفلة وذكاء وبلادة وكل ذلك يؤثر في عاداته وسياساته ونحوه ويؤثر بعضه في بعض ايضا بحيث تختلف النتائج عن ذلك اختلافا جسيما وتنوع الى ما لا حصر له فانك اذا قابلت بين سكان صنع وصنع تجد بينهم بونا عظيما في التكوين والاخلاق والسياسات والعادات وكذلك الاجيال الواحدة تختلف في الاحقاب المختلفة وسكان البلد الواحد يختلفون فيما بينهم حتى لا تكاد ترى اثنين يشبه احدهما الآخر بسبب ذلك

وربما امكن الحكم على طبائع كل قوم من طبائع اقليمهم بقطع النظر عن تاريخهم لان متولدات كل اقليم هي شبيهة بذلك كان اليونان الاقدمين في عصر الميتولوجيا يصلون انهم نار الحرب وكان اكثر شعورهم حماسيا كما جاء في ديوان شاعرهم اومبروس لان شعر كل قوم مرآة حال ذلك القوم ولذلك ايضا كان المصريون التمدد بعبودون الفساح وغيره من اصناف الحيوانات العجم. ولهذا السبب عينو كان اهل بريطانيا يغلب على طباعهم المجد وعلى تصوراتهم العبوسة كما يظهر من تصورات شاعرهم ملتن ولهذا السبب ايضا كان العرب واهل ايطاليا واسبانيا يصبون الى الانحان الشجية ويملون الى النزل والتصالي في شعرهم. وما كان بين ذلك كانت طباع اهلوا بين ذلك ايضا ولا يمكن الاطلاق في مقام التقييد لان اسبابا اخرى كثيرة عامة وخاصة اذا اشتركت مع ذلك لم تبقى هذه النتائج على حالها بل غيرت من امرها وبديلت تبديلا كبيرا

ومن تمنع من الاقدمين بما لطبيعة هذه الاسباب من الاثر في طبيعة الارض وسكانها ابن التلب ابقراط قال في عرض كلام له في هذا المعنى ما نصه "ان آسيا تختلف اختلافا عظيما عن اوربا بطباع محاصيلها وسكانها فكل ما يثبت في آسيا اقوم خلقا واعدل خلقا وسبب ذلك

اعتدال فصولها فانها لوقوعها بين شروق الشمس (التنوي والصيفي) هي معرضة للحر بعيدة عن البرد وهذا هو سبب خصبها وجودة محاصيلها واعتدال اقليمها. وهي ليست متساوية في كل الاماكن فاماكن منها واقعا متوسطا بين الحر والبرد كانت الثماره اخصب واشجاره اجمل وهوائه ارق ومياهه مطرا كانت ام ينابيع اصح اذ ليس فيه زيادة حر تحرقه ولا قلة مياه تيبسه ولا برد قارس يمتد بل هو دائما ندي بسبب امطاره الغزيرة وثلوجها الكثيرة فارضة لذلك كثرة الخصب زرعها مزروعا كان ام نباتا تنبت الارض من نفسها وحيواناته كثيرة كثيرة التيج وسكانه سان واشكالهم جميلة وقاماتهم معتدلة وقلما يختلف احد عن الآخر. وهذه النارة ايامها اشبه بالربيع لاعتدال فصولها انما ليس لاهلها بسالة الرجال ولا الصبر على الملأ ولا الثبات في الاعمال ويطلب عليهم حب الذات... وام اوروبا تختلف بعضها عن بعض بالتد والشكل لشدة اختلافات فصولهم وكثرتها. الى ان يقول. لذلك فيما ارى كان اهل اوروبا يختلفون فيما بينهم أكثر من اهل آسيا وكان اهل البلد الواحد يختلفون في التدلان تكوين المجين يختلف في اقليم تكثر فيه اختلافات الفصول أكثر من اقليم نشأه فصوله وكذلك يحصل في الاخلاق لذلك كان اهل اوروبا اشد نجة للحروب من اهل آسيا اه

وكذلك تكلم الشيخ الرئيس ابن سينا في كتاب القانون وقد فحنا نحو ابقراط في ذلك حتى يظن في اماكن كثيرة انه نقل عنه. قال في ارجوزته متكلمًا عن سبب اختلاف اللون في البشر بالزنج حر غير الاجساد حتى كسا جلودها سوادا والصقلب اكتسب البياضا حتى غدت جلودها بياضا

ومن افاض في هذا الموضوع ابن خلدون في مقدمته حيث بسط الكلام على تأثير الحر والبرد والهواء والقوت والمكن وغيرها بما لا يعد له مثل الا عند علماء طبائع الحيوان اليوم. قال من كلام طويل له في ذلك ما نصه "وفي القول بنسبة السواد الى حام غفلة عن طبيعة الحر والبرد واثرها في الهواء وفيما يتكون فيه من الحيوانات وذلك ان هذا اللون شمل اهل الاقليم الاول والثاني من مزاج هوائهم للحرارة المتضاعفة بالجنوب فان الشمس تسامت رؤوسهم مرتين في كل سنة قريبة احدها من الاخرى فتطول المسامنة عامة الفصول فيكثر الضوء لاجلها ويلج القبط الشديد عليهم وتسود وجوههم لافراط الحر الى ان يقول - وليست هذه الاسماء لهم من قبل اتسائهم الى آدمي اسود لا حام ولا غيره... ثم يقول. وتظهر هذين الاقليمين ما يقابلها من الشمال الاقليم السابع والسادس شمل سكانها ايضا البياض عن مزاج هوائهم البرد المفرط بالشمال اذا الشمس لا تزال باقهم في دائرة مرتي العين او ما قرب منها ولا ترتفع الى المسامنة ولا ما قرب منها فيضعف

الحرفية وبشتد البرد عامة النصول فتفيض الوان اهلها وتنتهي الى الرعورة . ويتبع ذلك ما ينتضيه مزاج البرد المفرط من زرقة العين وبرش الجلد وصهوبة الشعر " وهذا التعليل ربما لا يوافقه فيه كثير من العلماء اليوم لانه لم يتحقق لهم اثر الحر والبرد في توليد اللون . فقد ذكر كوكو نقلاً عن سيث ان الهولانديين الذين قطنوا افريقيا الجنوبية لم يتغير لونها في مدة ثلاثة قرون وذهب دي كاترفاج الى ان طوائف النور واليهود لم يتغيروا مع انهم منتشرون في عامة الاقاليم من عهده طويل . والصحيح انهم لم يتغيروا تغيراً مهماً الا ان هذه الادلة لا تفيد شيئاً عظيماً ضد هذا الاثر لنقص الاحقاب المذكورة بالنسبة الى الاعصار المتطاولة التي تنال على الانسان وبالنظر لما للانسان من الاقتدار على تغيير الاحوال الطبيعية وتحويل اثرها فيه لما يناسبه . وربما كان هناك اسباب أخرى ايضاً كالانتخاب الطبيعي والجنسي كما يذهب داروين والقوت والامراض وغير ذلك . والحق ان التعليل عن لون البشر لا يزال غامضاً الا انه لا ينكر ان لضوء الشمس والحر كسائر الاسباب الطبيعية ايضاً اثرًا فيه لما يعلم من تأثير المادة الملونة للجلد (والموجودة في جلد البشر عموماً) تبعاً لطبيعة الاقليم بحيث يزيد انقراؤها ويقل بحسب حرّ الاقليم ويردو كما يقول المشرح صلي

ثم يصف ابن خلدون تأثير ذلك في الاخلاق فيقول " ومن خلق السودان على العموم الخنة والطيش وكثرة الطرب فتقدم مولعين بالرقص على كل توقيع موصوفين بالحقق في كل قطر والسبب الصحيح تأثير الاقليم والحر - الى ان يقول - ونجد يسيراً من ذلك في اهل البلاد الجزيرية من الاقليم الثالث لتوفر الحرارة فيها وفي هوائها لانها عريضة في الجنوب عن الارياف والثلول واعتبر ذلك ايضاً في اهل مصر فانها في مثل عرض البلاد الجزيرية او قريب منها كيف تغلب الفرج عليهم والخنّة والخفة عن العراق حتى انهم لا يذخرون اقوات سنتهم ولا شهرهم وعامة اكثهم من اسواقهم . " وربما كان لعدم اذخارهم القوت سبب آخر غير الغفلة التي اشار اليها ابن خلدون فلا يخفى ان ما ينشأ في بلاد باردة من انقطاع المواصلات بين اهلها بسبب البرد والمطر والثلج يؤدّي في سكانها المحطة خوفاً من ذلك فيذخرون اقواتهم لسنة بل ولاكثر من سنة بخلاف سكان البلاد التي يندر مطرها ويقل بردها فهم لا يرون لزوماً ان يحتاطوا لامر لا يخشون وقوعه وقد ذكر تأثير الخصب والجهد بما ينطبق على قولنا " وسكان بلاد لينة التربة كثيرة السهول والبساتين كثيرة الخصب واسعة الرزق قلما يحتاجون الى جهد البدن والعقل للحصول على الرزق والاثراء فان ارضهم تنبت ما يكفيهم وربما تنبت منهم الهم بقدر سعة العيش مثل بلاد مصر فان نيلها يفيض النهر وارضاها تنبت الذهب "

ومن عجيب ما ذهب اليه في هذا الباب - ما لو اطلع عليه علماء طبائع الحيوان اليوم لاتبعتوا له السبق على دارون ولا مارك في مذهبهما باحتباب متطاولة وان لم يقصد ذلك نظيرهما - هو قوله "واعبر ذلك في حيوان الفئر وسواطن الجذب من الغزال والنعام والمهي والزرافة والحمر الوحشية والبقير مع امثالها من حيوان التلول والارياض والمراعي المخصبة كيف تجد بينها بونا بعيدا في صفاء ادبيها وحسن روتها واشكالها وتناسب اعضائها وحدة مداركها. فالغزال اخو المعز والزرافة اخت البعير والحمار والبقير اخو الحمار والبقير واليون بينها ما رأيت. وما ذاك الا لاجل ان المخصب في التلول فعل في ابدان هذه من الفضلات الرديئة والاخلاط الناسة ما ظهر عليها اثره والمجوع لحيوان الفئر حسن في خلقها واشكالها ما شاء"

الا انه وان كان قد اشبع الكلام في اثر الاسباب الطبيعية انما لم يذكر تأثير الاسباب الادبية كما فعل افراط ولا ينفي ما لهذه الاسباب من شديد الاثر في ذلك والحق يقال انه يصعب استيفاء الكلام في هذا الموضوع جملة ومبونا ولو في مجلدات ضخمة لكثرة هذه الاسباب ومتراجها واختلاف نتائجها بحسب ذلك ما لا يقع تحت ضبط كما اشرنا اليه في ما تقدم فهذه الاسباب الطبيعية والادبية مع ما يعرض لها من الامتزاج والاختلاف انما تؤثر تأثيرا شديدا في العمران لشدة تأثيرها في الانسان وهذا هو السبب في عدم تساوي البشر في صفاتهم ونظاماتهم وعلومهم وصناعاتهم ولغاتهم وسائر ما يتعلق بهم لعدم امتواء الاسباب المؤثرة في طبائعهم واخلاقهم انما لم يكن يمنع اصلاح احوالهم بالاسباب الادبية لما للانسان من الاقتدار بها على التأثير في الاسباب الطبيعية نفسها وجعلها اصح الاحوال له لان الانسان وان كان منفعا لثمة الاسباب بحسب طبيعتها الا انه قادر كذلك على تغييرها وتبديلها واتقاء شرها واستدرار خيرها بما له من حدة المدارك وقوة الاستنباط. لذلك كان من الواجب عليه ان لا يغفل شأن معدات التربية العقلية كالعليم والنظامات السياسية وسواها فكلما يفقد يفقد الصالح منها عامة فواتد العمران ويسقط في مهاوي التهلكة والخسران

زيت السلاخف

يستخرج هذا الزيت من دهن السلاخف بالغليان ويتمعمل بدل زيت السمك في كل الامراض التي يتمعمل فيها زيت السمك ويزيد عليه نفعاً وليس له طعم كريه مثله على ما قيل